دور المسلمين في إنهاك الاقتصاد الإسباني في القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر

عبد الرحمن عبد الله الشيخ(*)

مستخلص البحث

يتناول هذا البحث أفكاراً جديدة ، تُصحح أخرى قديمة وخاطئة عن موقف الإسبان من المسلمين عقب سقوط غرناطة وطوال القرن السادس عشر ، وحتى أُخرِجوا من ديارهم نهائياً في مطلع القرن السابع عشر .

وتُثبِت هذه الدراسة من خلال وثائق منشورة لم يُراجعها عدد كاف من الباحثين المسلمين أن عامة الناس ، وأصحاب الأراضي والمصانع خاصة ، لم يؤيِّدوا إخراج المسلمين ، لما في ذلك من أضرار اقتصادية ستُحيق بالبلاد ، وهذا ما أثبته التاريخ بعد ذلك .

كما تتناول هذه الدراسة أثر حركة جهاد البحر التي قام بها سكان شمال إفريقيا والدولة العثمانية في إجهاض الاقتصاد الإسباني ، وأثر ذلك في توجه أهل جِنِوَةْ الماهرين في التجارة والاقتصاد نحو إسبانيا يستنزفونها بالقروض الربوية وغيرها ، مما جعل إسبانيا في هذه الفترة ، لا كما تصوّرها المراجع ، أمبراطورية كبرى ، وهي بالحقيقة ، كيانٌ هشّ . ولم يكن من الممكن التوصل إلى هذه النتائج الجديدة دون الاهتمام بالجانب الاقتصادي للتاريخ ، ذلك الفرع الهام الذي لم يلق الاهتمام الكافي .

مقدمــة

لم يكن إخراج المسلمين من الأندلس عَقِب سقوط غرناطة مَطْلباً شعبياً . وتلك حقيقة أثبتتها الدراسات الوثائقية(١) وإنما كان بالدرجة الأولى والأخيرة مطلباً كَنَسيًّا عارضه العامة من الناس ،

(*) أستاذ مشارك التاريخ الحديث ، قسم التاريخ ، كلية الآداب - جامعة الملك سعود - الرياض ، المملكة العربية السعودية .

(١) يذكر المؤرخ لي Lea أن طَرْد المسلمين من الأندلس لم يكن لتعصّبهم ولا لامتصاصهم دماء الناس كما فعل اليهود ، وإنما كان نتيجة خطة -

منظمة لبث الأحقاد كانت تقودها كنيسة روما التي كانت تحرّم وتجرّم أي صداقات مع المسلمين ، وكانت الكنيسة تخطط بانتظام لإبقاء العناصر متباعدة لايختلط بعضها بالبعض الآخر ، وفي القرن الثالث عشر تدخلت الكنيسة حتى في المعاملات التجارية فلم تُجز الاتجار مع المسلمين إلا بتصريح مسبّق ، وهذا القرار أصدره انوسنت الرابع ، إلا أن الناس كانوا يتعاملون مع المسلمين سراً مخالفين تعاليم الكنيسة ، بل إن الحكام المحليين كانوا يفعلون ذلك . وفي مؤتمر عقد في فينا ١٣١٢ تواصى المؤتمرون بمنع المسلمين في أوربا من أداء صلواتهم وطردهم ولكن الأمراء تجاهلوا ذلك . وبعد ذلك بقرن تقريبا أي في ١٤٢٩ التمس مجمع تورتوسا Tortosa من ملك أراجون ومن كل النبلاء ملاحظة التشريع السالف (١٣١٢) الا أن الأمراء لم يحركوا ساكنا ، ولم يبدأ تطبيق إذلال المسلمين بشكل صارخ إلا على أيدي فرديناند وإيزابيلا ١٤٨٢ . ومن الملاحظ أن الكراهية على المستوى الشعبي كانت موجهة أساسا لليهود ، لهذا كانوا هم أول من خرج بعد سقوط غرناطة مباشرة . ومع كل هذه التشريعات فإن طرد المسلمين لم يتقرر نهائياً إلا في القرن السابع عشر .

راجع تفاصيل ذلك في :

Henry Charles Lea, *The Moriscos of Spain: Their Conversion and Expulsion.* (Philadelphia: Lea Brothers, 1901), pp. 8 – 14.

وقد نشر Lea عدداً كبيراً من الوثائق الإسبانية ، وعرض محتواها بالانجليزية ، وفيما يلي بعضها :

- *Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 1.*
- *Archivo de Simancas, Inquisicion, Legajo Unico,* **Fol 4.**

وقد نشر Lea النص الإسباني كاملاً وأعطاه عنواناً إنجليزياً هو :

Permission for the Moors of Portugal to pass through or settle in Castile.

وقدم مُستخلصاً لمحتويات الوثيقة بالإنجليزية في ص ٢٣ من كتابه .

- *Archivo de Simancas, Patronato Real, Inquisicion, Legajo Unico,* **Fol. 26.**

نشر لي النص الإسباني للوثيقة كاملاً ، وعنوانها باللغة الإنجليزية كالتالي :

General Pardon of the new converts

وعرض بعض محتواها بالإنجليزية في ص ٣٧ من كتابه .

- *Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 926, Fol. 76.*

نشر لي النص الإسباني كاملاً ، وأعطاها عنوانا إنجليزياً هو :

Ferdinand, S Reproof to Inquisitors

وقدم مقتطفات مترجمة للإنجليزية منها في ص ٥٩ من كتابه .

- *Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 4,* **Fol. 97.**

نشر لي النص الإسباني كاملا ، ثم عنونه بالإنجليزية كالتالي :

Letter of Cardinal Manrique to Charles V concerning the coerced converts of Valencia.

وعرض لمحتوى الوثيقة في ص ٧٤ من كتابه .

- *Informacio Super Conversione Saracenorum.*

أعطى لي هذه الوثيقة عنواناً هو :

Commission from the Inquisitor General.

وذكر أن أصل الوثيقة في حوزته الشخصية ، ونشر نصها الإسباني كاملاً في ص ص ٤١١ – ١٢ من كتابه ، وعرض لبعض محتوياتها بالانجليزية في ص ٧٥ من كتابه .

- *Archivo do Simancas, Patroncite Real, Inquisicion, Ligajo unico,* **Fol, 38,39.**

وقد نشر لي الوثيقة كاملة بنصها الأسباني ، وجعل عنوانها بالإنجليزية كالتالي :

Complaints of the cortes of the kingdoms of Aragon in 1537, concerning the treatment of the Moriscos, with replies of the Inquisitor General.

وقدم عرضاً لبعض محتوياتها في صفحتي ٩٨ و١٢٢ من كتابه .

- *Archivo de Simancas, Inquisicion, Libra 4,* **Fol 262.**

وقد نشرها لي كاملة وأعطاها عنواناً إنجليزيا هو :

Delegation by Inquisitor General Valdes of power to Hear confossians.

وقدم عرضاً لبعض محتوياتها في ص ١٢٠ من كتابه .

• *Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro, 77,* **Fol, 228.**

نشرها لي كاملة بالإسبانية وجعل لها عنواناً إنجليزيا هو :

Cardinal Manrique's instruction to Calcina and Haro.

وعرض بعض الافكار الواردة بها في ص ١٤٢ وص ١٨٥ في كتابه .

• *Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 926,* **Fol 71.**

وعنوانها بالإنجليزية هو :

Brief of Clement vI1, Februery 28, 1579

وعرض لي بعض أفكارها في كتابه السالف الذكر ص ١٧٠ .

• *Archivo Historico Nacional, Inquisicion de Valencia, Legajo 5,* **Fol 298.**

وذكر لها لي عنوانها إنجليزيا بعد أن نشرها بالإسبانية :

Report of Inquisition of Valencia on result of the edict of Grace of 1599.

وذكر مضمونها في ص ١٧٣ من كتابه .

• *Archivo de Simancas, I nquisicion, Libro 926,* **Fol 80.**

نشرها كاملة وعنونها بالإنجليزية كالتالي :

Report of inquisiton on the Moriscos of Granada, 1526 – 1561.

وعرض بعض أفكارها في ص ٢١٥ من كتابه

• *Moorish Ballad of 1568. Prior tothe rebellion of Granada.*

قدم لي الترجمة الانجليزية الكاملة لها في ص ص ٤٣٤ – ٤٣٧ .

• *Archivo Historico Nacional, Inquisicion de Valencia, Cartas del Consejo Legajo 5, No. 1,* **Fol 254.**

وبعد نشرها بالإسبانية ، قدم لي لها عنواناً إنجليزية هو :

Letter of Inquisitor General, Quirogo suggesting the Expultion of the Moriscos.

وعرض لبعض محتواها في ص ٤٣٨ من كتابه

• *Archivo de Simancas, Inquisicion, Sala 51, Legajo, 205,* **Fol 2.**

وقد عنونها لي بالعنوان الإنجليزي التالي بعد نشرها بالإسبانية

Brief relation of the expultion from Valencia.

وعرض لمحتواها في ص . ٣٢٠ من كتابه سالف الذكر .

ومن المراجع الوثائقية الهامة بالنسبة لهذا البحث :

Henry Kamen, *Spain in the Later 17th Century, 1665 – 1700.* (London: Longman, 1980).

وهو كتاب هام ووثائقي ، إذ اعتمد المؤلف على كل الأرشيفات (دور الوثائق) الإسبانية ، وعدد من دور الوثائق الانجليزية والفرنسية ، وأشار إلى وثائقه بوضوح ودقة وقدم مقتطفات كافية منها ، ورغم انه يركز على نهاية القرن السابع عشر الا أنه في حالات كثيرة كان يُجذر الاحداث بالرجوع إلى حقب أسبق ، لذا كان مفيداً لهذا البحث ، وفيما يلي ثبت بأهم دور الوثائق التي رجع إليها :

• *Archivo dela Corona de Aragon*
• *Archivo de la Diphtacion, Zaragoza.*
• *Archivo General de las Indias, Savilla.*

وعارضه حكام الولايات ، وعارضه بشدة أصحاب الأراضي من الإسبان(٢) . فقد كان عداء الإسبان لغير المسيحيين مُنْصباً بالدرجة الأولى على اليهود ، لأسبابٍ دينية(٣) وعِرْقية(٤) واقتصادية(٥) . والذين أجبروا على الخروج من الأندلس في أعقاب سقوط غرناطة هم اليهود وليس المسلمين الذين تُرك لهم في البداية حرية الاختيار بين الإقامة والرحيل(٦) ثم مالبث الكنسيون أن فرضوا رأيهم فأصبح الاختيار محصوراً بين الرحيل وقبول التعميد(٧) .

وفي مطلع القرن السابع عشر لم يَعُد ثمة خيار ، فأجبروا جميعاً على الرحيل(٨) .

وتُثبت هذه الدراسة بالوثائق وبالرجوع لمراجع كتبها إسبان مؤرخون(٩) واقتصاديون(١٠) أن

- *Archivo General de protocolos, Barcelona,*
- *Archivo General historico Nacional, Madrid.*
- *Archivo Municipal de Murcia*
- *Archivo Municipal de Sevilla*
- *Archivo Municipal de Valencia*

ومن أرشيفات باريس :

- *Menestere des affaires etrangeres* Paris, (Section correspondance politique)
- *Archives Nationales,* Paris
- *Depot General de la Guerre*

وفي بريطانيا :

- National library of Scottland *(Astorga collection)*
- *Public Record Office.*

(٢) H.C. Lea, *op.cit.*, pp. 8 – 11.

(٣) *Ibid.*, p.11

(٤) رغم أن عدداً كبيراً جداً من اليهود أعلنوا قبولهم للمسيحية وأصبح اسمهم المسيحيين الجدد ، إلا أن الكراهية ضدهم ازدادت ازدياداً كبيراً بسبب اشتغالهم بالربا وامتصاصهم دماء الشعب الإسباني *Ibid.*, pp. 12 – 14 .

(٥) *Ibid.*, pp, 12 – 14 .

(٦) وقد نشر باحث عربي الترجمة الكاملة لمعاهدة تسليم غرناطة وملحقاتها عن القشتالية مباشرة . ويلاحظ أن هذه المعاهدة لم تنفذ مما يدل على أن الباحث يجب عليه التحرر في اعتماد الوثائق كمصدر وحيد للتاريخ ، فقد لاقى الذين أقاموا عنتاً شديداً .

- محمد عبده ، حتاملة **التنصير القسري لمسلمي الأندلس** ، (عمان ، ١٩٨٠) ص ص ١٩٠ – ٥٩ .
- محمد عبده حتاملة **محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة** (عمان ، ١٩٧٧) .

(٧) H.C. Lea, *op. cit.*, p. 25.

(٨) كان بعض هؤلاء تنقلهم سفن مجاهدي البحر (أو القراصنة كما تسميهم المراجع الغربية) وقد كان القرار بالطرد رغم اعتناقهم المسيحية أو تظاهرهم بذلك . وقد صدر القرار النهائي في ٢٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١٦٠٩ . انظر أهم محتويات القرار في : محمد عبد الله عنان ، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** ، (القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٨) . ص ص ٣٧٩ – ٣٨٠ ، ٣٨٢ . وحتى بعد صدور قرار الطرد النهائي نص قرار لاحق على استبقاء ٦٪ من المسلمين الإسبان ليعملوا في معامل تكرير السكر وتنظيم الري وصيانة المباني وتدريب السكان الجدد . ولكن قرار المسلمين في وقت لاحق هو أن ينصحوا إخوانهم الذين يريد المسيحيون استبقاءهم (الـ ٦٪) بالرحيل أيضا .

(٩) لقد تخصص لي Lea في التاريخ الإسباني في هذه الفترة وفي فترات أخرى ، وكانت محاكم التفتيش والتاريخ الديني لإسبانيا ، وتاريخ الكنيسة خاصة ، هي محور دراساته الهامة . وهي دعوة للاهتمام بهذا الكاتب ومن دراساته :

خروج وإخراج المسلمين الإسبان Los Moriscos كان نكبة أضرَّت بالاقتصاد الإسباني ، كانت واضحة جلية طوال القرن السادس عشر والسابع عشر ، واستمرت ذيولها بشكل صارخ في القرن الثامن عشر أيضاً(١١) . فليس صحيحاً ماذكره بعض الباحثين من أن سقوط غرناطة كان «فاتحة عصر إسبانيا الذهبي»(١٢) .

ولم يكن مسلمو الأندلس بمعزلٍ عن التيارات الإسلامية في الخارج ، وهم يواجهون محنتهم تلك – والتي ثبت بعد ذلك بما لايدع مجالاً للشك أنها أيضاً كانت وبالدرجة الأولى محنة للإسبان ، وإنما كانت الأيدى تمتد إليهم من مسلمي شمال إفريقيا . وتشير المصادر إلى أن جهاد البحر أو ماتسميه المراجع الأوربية باسم «القرصنة في البحر المتوسط» ، كان يشكل نزيفاً حاداً للاقتصاد الإسباني ، وأن الشواطيء الإسبانية كانت في حالة تهديد دائم . ومما يدعو للسخرية أن معظم الأساطيل الإسبانية التي كانت تخوض الحرب في البحر المتوسط وعلى سواحله الجنوبية كانت مستأجرة وليست ملكاً للتاج الإسباني(١٣) ، مما استنزف سَيْل المعادن النفيسة التي كانت تَرِد لإسبانيا من العالم الجديد(١٤) . كما أن عدم تفرغ الحكومة الإسبانية للأمور الداخلية نتيجة هذا

— • *Ahistory of the Inquisition of the Middle Ages.* **3 vols.**
• *Chapters from the religious History of Spain Connected with the Inquisition.*
• *Studies in the Church History.*

(١٠) H. Kamen, *op. cit.*
ومن المقالات الهامة التي رجعت إليها ماكتبه الباحث الاختصاصي في التاريخ الاقتصادي :
Carla Rahn Phillips, The Spanish wool trade, 1500 – 1780. *The Journal of Economic History,* 1982. iv.
والمقال وثائقي ، وهو عرض من خلال الأوراق الحكومية وكشوف الحسابات المتعلقة بتجارة الصوف في الفترة موضوع الدراسة في :
Archivo General de Simancas.
وغالب إشاراته المرجعية إلى وثائق الأرشيف المذكور .

(١١) *Archivo de Simancas, Inquisition, Libro 926,* **Fol 76.**
وأهم الأفكار الواردة في الوثيقة أن التحول للمسيحية لايتم بالقوة وإنما بالقناعة ، لهذا فإن الذين تركوا دورهم خوفاً من التعميد يجب إعادتهم مع الأمان الكامل .
راجع العنوان الإنجليزي المترجم لهذه الوثيقة في : حاشية رقم (١) .
وهذا يدل على تردد السلطات الإسبانية وإدراكها للأهمية الاقتصادية للمسلمين الإسبان ، مع عدم إغفال الرغبة في إجبارهم على التحول للمسيحية بدليل ما جاء في وثيقة أخرى صادرة من فرديناند سنة ٢٦،١٥٠٠ شباط (فبراير) بالعفو عن كل الجرائم التي ارتكبها من قبلوا التعميد .
انظر حاشية رقم (١) عن :
Archivo Simancas, Patronoto Real, Inquisicion, Legajo unico, **Fol, 26**

(١٢) محمد عبد الله عنان ، **الآثار الأندلسية الباقية** (القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦١) ، ص ١٦٠ .
(١٣) انظر هذا البحث ص ١٦ .
(١٤) انظر هذا البحث ص ص ١٥ – ١٧ .

الصراع أتاح لأهل جنوه الاستئثار بالأمور المالية داخل إسبانيا ، وجعلهم يحصلون على أرباح مهولة نتيجة تأجيرهم السفن وإقراضهم الحكومة الإسبانية نظير أرباح مجزية(١٥) . مما أضاع على إسبانية جُلَّ أموالها .

أما الصراع الإسباني مع الدولة العثمانية وسيطرة هذه الأخيرة على تجارة الشرق ، فقد أدى إلى خنق اقتصاد البندقية(١٦) ، ولكنه أدى في نفس الوقت إلى توجيه أهل جنوه توجُّهاً غربياً نحو إسبانيا بما لديهم ، أي أهل جنوه ، من خبرات مالية وتجارية لاتحد ، فأتاح لهم ذلك استنزاف الشعب الإسباني(١٧) ، ذلك الاستنزاف الممثل حتى يومنا هذا في حساسية أهل إسبانيا ضد الجنويين(١٨) .

كما أن الدولة العثمانية كانت شريكاً فعالا ، بل قائداً لحروب الجهاد البحري في المتوسط(١٩) رغم هزيمتها في معركة ليبانتو سنة ١٥٧١م(٢٠) .

لقد تضافرت عناصر إسلامية ثلاثة في الجهاد ضد الإسبان هي : المسلمون الإسبان ، وسكان شمال إفريقيا ، والعثمانيون . ورغم أنه من الصعب الفصل بين دور كل عنصر عن العناصر الأخرى ، إلا أن هذا ضروري لأغراض هذه الدراسة . ورغم أنه من الصعب أيضاً أن نفصل بين الآثار الاقتصادية لجهاد المسلمين ضد الإسبان ، والآثار الاجتماعية والسياسية ، إلا أننا حاولنا ذلك قدر الإمكان ، اللهم إلا إذا كان التأثير الاقتصادي ملتصقاً لافكاك منه بالتأثيرات السياسية والاجتماعية . ومن خلال دراسة هذه التأثيرات الاقتصادية اتضح أن إسبانيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، لم تكن دولة عظمى كما تظهرها مراجع التاريخ العام ، وإنما كانت عملاقاً من ورق ، إن صح هذا التعبير . وبسبب هذا الصراع الإسلامي الإسباني لم يتم توحيد إسبانيا إلا من الناحية الشكلية(٢١) . وظل الصراع بين ممالك إسبانيا قبل التوحيد مستمراً بعد التوحيد الذي اتخذ طابعاً شكلياً(٢٢) لدرجة أن بعض المراجع تذكر أن تنحى شارل الخامس عن العرش وتقسيم أمبراطوريته بين ابنه وأخيه كان بسبب الصراع مع المسلمين(٢٣) . وفي ظل هذه المعلومات غير الشائعة ، وفي ظل

---

(١٥) انظر هذا البحث ص ص ١٥ – ١٧ .

(١٦) Paul, Coles. *The Ottoman Impact on Europe.* (London, 1968)

(١٧) انظر هذا البحث ص ص ١٥ – ١٧ .

(١٨) انظر هذا البحث ص ص ١٥ – ١٧ .

(١٩) لجأ كثير من المسلمين الإسبان الخارجين اختياراً أو إجباراً إلى شمال إفريقيا وإلى العاصمة العثمانية ، وكانوا عناصر فعالة في حركة جهاد البحر المتوسط .

(٢٠) راجع تعليق السلطان على هزيمته في ليبانتو في ص ١٤ من هذا البحث .

(٢١) P. Coles, *op. cit.*, p. 130

(٢٢) *Ibid.*, pp. 129 – 130

(٢٣) يرى كولز أن سليمان القانوني (الفاخر) أسهم عن غير قصد في إيجاد أمبراطورية النمسا ، أو ملك الهبسبرج الذي استمر حتى القرن

ماقدمته لنا الوثائق والمصادر غير المطروقة ، هل يمكن لنا القول أن إسبانيا خرجت من صراعها مع المسلمين في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، خروج المنتصر ؟؟ هذه الدراسة تثبت العكس ، وهي أيضاً مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إنْ يَمْسَسْكم قَرْحٌ فَقَد مسَّ القومَ قَرْحٌ مِثْله ﴾(٢٤) وقوله تعالى : ﴿ إنْ تَكونوا تَأْلَمون فإنَّهم يَأْلَمون كما تَأْلَمون﴾(٢٥)

أثر المسلمين الإسبان

كان الحكام وأصحاب الأراضي ينظرون للمسلمين الإسبان كعناصر منتجة ، ويعتبرونهم مفيدين للغاية في زراعة الأرض وتحمل المصاعب الجسام حتى إن مثلاً إسبانياً شاع في هذه الفترة ترجمته العربية ، إن مزيداً من المسلمين الإسبان Los moriscos يعني مزيداً من الأرباح والمكاسب ، وترجمه الإنجليز قائلين : The more moors, the more profits أما نصه الإسباني فهو : Mientras mas moro, mas gananicias(٢٦) لذا بذل أصحاب الأراضي والأعمال ، بل حتى الطبقة الحاكمة كل مافي وسعهم للإبقاء على الوضع الراهن Status quo(٢٧) «فإن أي اضطرابات ستؤدي إلى خسارة» بل إن أصحاب الأراضي «كانوا أحياناً يقفون إلى جانب المسلمين العاملين لديهم والذين يعارضون التعميد ولا يرغبون في التحول للمسيحية»(٢٨) بل إن هذه الرغبة في عدم خروج أو إخراج المسلمين من ديارهم الإسبانية اتخذت شكلاً رسمياً «ففي سنة ١٤٩٥م نجد المجلس التشريعي ، البرلمان ، في Tortosa(٢٩) يلتمس من فرديناند عدم طرد المسلمين من كتالونيا»(٣٠) ولم

العشرين ، وذلك بدون قصد منه ، فقد وجد هذا الكيان أساساً – فيما يرى كولز لصد التقدم العثماني .

Ibid., p. 123

كما أن الخطر العثماني أو انشغال شارل الخامس في حروبه الكثيرة ومشاكله المتعاظمة والصراع الديني ، كل هذا أدى إلى تدعيم سلطة أخيه الأصغر ، فرديناند في النمسا ، وهذا أدى إلى توليه السلطة منفرداً بعد ذلك .

Ibid., p. 119

(٢٤) **القرآن الكريم** ، آل عمران ، ١٤٠ .

(٢٥) **القرآن الكريم** ، النساء ، ١٠٤ .

(٢٦) H.C. Lea, *op. cit.*, p. 56

(٢٧) *Ibid.*, pp. 56 – 66

(٢٨) كتب مانريك Manrique رئيس محكمة التفتيش ورئيس أساقفة إشبيلية شاكيا للأمبراطور في ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٥٢٤ أن النبلاء يعارضون طرد المسلمين أو مضايقتهم لأن هذا يؤدي إلى خسائر مالية ، وهم بذلك يبيعون آخرتهم بدنياهم .
انظر :

Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 4, **Fol. 97**

وهي الوثيقة التي عرضها لي †σα وعنوانها بالإنجليزية كالتالي :

Letter of Cardinal Manrique to Charles V concerning the coerected converts of Valencia.

انظر حاشية رقم (١) وانظر أيضا :

• محمد عبد الله عنان ، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين** (القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٨) ، ص ٣٣٦ .

(٢٩) H.C. Lea, *op.cit.*, p. 28

(٣٠) عانى أهل كاتالونيا و(قطلونية) من المسلمين ، اضطهادا شديدا مما دفعهم للقيام بثورة عارمة قمعت بقسوة . راجع تفاصيلها في : ـــ

يكن تحذير أصحاب الأعمال والأراضي والحكام المحليين من إخراج المسلمين ومايجره من عواقب وخيمة على الاقتصاد الإسباني وليد القرن السادس عشر ، بل لقد كان تحذيراً قديماً حتى قبل سقوط غرناطة ، لكن السلطات الكنسية كانت هي وحدها التي تُلِح مهددة كل من يعترض بالطرد من رحمتها(٣١) . وعندما شبت ثورة المسلمين في بلنسية سنة ١٥٢٦ رفض أصحاب الأراضي في هذه المناطق أن يتعاونوا مع الحكومة في قمعهم ، الأمر الذي حدا بمدريد إلى إناطة مهمة قمعهم والقضاء عليهم إلى فرق من المشاة الألمان جلبوا خصيصاً لذلك ، مما أدى إلى كثير من المعاناة والتكاليف الباهظة(٣٢) . وتفسير ذلك يسير في الواقع ، فهو يدل على أن الإسبان لم يكونوا ينظرون للمسلمين كجماعات مستغلة مصاصة للدماء ، كما أن السكان المسلمين في كثير من المناطق خاصة في بلنسية وأراجون «كانوا يمثلون السكان الأساسيين المنخرطين في سلك العمالة الزراعية والصناعية ، حيث كانت المصانع وخصوبة التربة قد جعلتهم مصدراً نفيساً ، لا يقدر بثمن ، للارستقراطية المحلية التي كانت تستغلهم كعمال زراعيين . وفي هذه المناطق كانت سياسة الحكومة تمثل إحباطاً للنبلاء الذين كانوا مهتمين بحماية القوى العاملة التي اعتبروها شيئاً جديراً بالنضال من أجله»(٣٣) .

وقد عمد الكنسيون إلى تزييف الحقائق بعد خروج المسلمين Los moriscos خروجاً نهائياً في مطلع القرن السابع عشر ، وراحوا يتغنون بأفكارٍ أثبت التاريخ الاقتصادي خطأها ، لدرجة أن أحد الباحثين يذكر بالحرف الواحد أن «الكنسيين عملوا بحماس ليكونوا سبباً في حلول الكوارث والنكبات بإسبانيا»(٣٤) ومع هذا كانت أناشيدهم مرتفعة بالنصر المزعوم ، إذ أثبتت الأيام أن هذه الأناشيد كانت بمثابة نعيق بوم على طَلَلٍ خَرِب . فالكنسي فراي بليدا Fray Bleda يؤكد للملك كذباً أن خزائنه بعد أن خرج المسلمون ستمتلىء ، وديونه ستسدد ، والأرض سيتم حرثها ، وستنتعش الأرض الخراب «وتغدو خصبة غنية» وسيحل بإسبانيا عهد ذهبي تكون فيه «موحدة محررة من الأعداء الداخليين»(٣٥) . ثم تأخذه الحماسة المُبَالَغ فيها فيقول : «إنه لأكثر عهود إسبانيا

— J.H. Elliot, *The revolt of the Catalans, A Study in the Decline of Spain 1595 – 1640.* (Cambridge, 1963).

(٣١) وتحدث كاتب آخر ، ولكن بإيجاز شديد عن اعتراض ارستقراطية اراجون وبلنسيه على طرد المسلمين في هذه المناطق . انظر : Jan Read, *The Moors in Spain and Portugal.* (London, Faber, 1974).

(٣٢) P. Coles, *op. cit.*, p. 128. H.c. Lea *op. cit., p. 11.*

(٣٣) *Ibid.*, p. 128

ويصف مرسيلين ديفورنو Defourneaux الحدائق والمزارع التي كانت غناء فأضحت خراباً بعد خروج المسلمين الذين كانوا خبراء في الزراعة والري .

Marcelin Deforneaux, *Daily life in Spain in the Golden age.* Translated by Newton Branch, 1979 pp. 17 – 19

(٣٤) H.C. Lea, *op. cit.*, p. 366

(٣٥) *Ibid.*, p. 366

عظمة وفخامة منذ قدوم المسيح ، وإنها لمناسبة سعيدة أن نتحرر من الوثنية»(٣٦ ، ٣٧) . أما جودالاخارا Guadalajara فلم يكن يقل حماسة عن بليدا . فقد ذكر أن اقتران الكواكب السعيدة في كانون الأول ديسمبر سنة ١٦٠٣م ، كما تشير «كل النبؤات وأصول العرافة الإسبانية والعربية» والتي قد راجعها بنفسه ، تؤكد أن إسبانيا وقد تخلصت من المسلمين «ستستعيد القدس وستحطم القوى الإسلامية»(٣٨) . يستطرد جودالاخارا متنبئاً بأوضاع إسبانيا الاقتصادية بعد إخراج المسلمين – تلك التنبؤات التي تحقق عكسها – فيقول : «إن المسلمين الإسبان ، وإن زعموا أن الرخاء في ركابهم يسير ، وأن الرخاء سينقطع عن إسبانيا إن تركوها .. إلا أنه منذ طردناهم ونحن في وفرة ورخاء ، فقد انخفض سعر القمح ، وأصبحت التجارة أكثر تحرراً ، وخلت الشواطىء من القراصنة ، وأضحى الناس يسافرون بلا خوف ، ويرحلون بلا خطر ، وغدت العملة صحيحة لاتندس بينها عملة زائفة ، وخلت أرضنا من الخيانة العظمى للوطن»(٣٩) لكن الكُتَّاب الجادين رأوا في مثل هذه الآراء مجرد «تعزية فلسفية» لتعويض خسائرهم ، على اعتبار أن بعض المذاهب المسيحية «تحتقر المكاسب المادية»(٤٠) . وليس أدل على هذا من أن بليدا الذي أشرنا إليه سابقاً عاد سنة ١٦١٨م ليعترف ببعض التأثير لغياب المسلمين ، وإن كان قد ذكر أنه تأثير «ضئيل»(٤١) وراح يلتمس التوقعات المطمئنة ، فإذا كانت الموارد الكنسية قد قلَّت إلا أنها في رأيه ستعود للانتعاش في حدود سنوات ثمانية أو تسعة ، وإن كان أصحاب الأراضي يعانون من جدب أراضيهم حيث لم يعد في إمكانهم ريها بسهولة ، بعد غياب المسلمين ، لكنهم سيحتاجون لعدد أقل من العمال المسيحيين(٤٢) . ولم تتحقق توقعات بليدا ، ففي تحليلات أخرى ذُكر أن إخراج المسلمين أدى إلى نقص رهيب في عائدات الكنائس وعائدات النبلاء ، وكان هذا واضحا في بلنسيه Valencia وسرقسطة Saragossa وترازونا Tarazona ، إذ قَلّ الدخل إلى حوالي النصف(٤٣) . وهي نسبة

---

(٣٦) *Ibid.*, pp. 366 – 367

(٣٧) يقصد بالوثنية هنا الإسلام .

(٣٨) H.C. Lea, *op.cit.*, p. 366

(٣٩) *Ibid.*, p. 367

عن ارتفاع أسعار القمح ارتفاعا رهيبا في منتصف القرن ١٧ خاصة ، انظر :

E. Hamilton, *War & Price in Spain, 1651 – 1800.* (Cambridge, 1947), pp. 228 – 9

أما انخفاض سعر القمح عقب خروج المسلمين مباشرة فيرجع إلى أن قرار الترحيل القسرى النهائي ١٦٠٩ قد حتم عليهم ألا يحملوا معهم إلا مايقدرون على حمله على ظهورهم ، فأدى هذا إلى أن باع المسلمون كل ماكان لديهم من قمح وماشية وعسل .. الخ . بأبخس الاثمان ، فانخفضت الأسعار ولكن إلى حين ، وهو انخفاض مفتعل غير طبيعي .

محمد عبد الله عنان ، **مرجع سابق** ، ص ٣٨٢ .

(٤٠) H.C. LEa, *op. cit.*, p. 369

(٤١) *Ibid.*, p. 368

(٤٢) *Ibid.*, p. 368

(٤٣) *Ibid.*, p. 369

كبيرة . وفيما يلي نورد أرقاماً أخرى من مصادر أرشيفية تؤكد ما اعترى الاقتصاد الإسباني من خلل كبير في مناطق مختلفة .

ففي جنديا Gandia وأوليفا Oliva وفوتيدان Fuentedan ومورلا Murla التي كانت تضم أكثر من ٦٠٠,٠٠٠ مسلم كتابع إقطاعي Vassals ، كانت أراضيها تغِلّ عائداً مقداره ٥٣,١٥٣ ليبرا Libras(٤٤) و٨ صولد Sueldos(٤٥) وفي سنة ١٦١٠م نقص الدخل إلى ١٥,٣٤٦ ليبرا و ٥ صولد ، ثم عاد فارتفع سنة ١٦١١م إلى ١٧,١٧٩ ليبرا و ١٠ صولد و ٣ دينيرو Dineros(٤٦) وفي عشرة قرى من قرى جنديا Gandia كان هناك ٤١٧ مسكنا بلا سكان ، وأربعة بيوت هجرها أصحابها ، كما كانت هناك خمس قرى صغيرة خاوية على عروشها . وكانت الأرض تعاني بشدة من نقص الأيدي العاملة(٤٧) . وحتى عندما شرع التاج الإسباني في التصرف في الأرض الخالية التى تركها المسلمون المجبرون على الرحيل ، فقد أدى هذا إلى أزمات . ففي أراجون وبلنسية آلت الأراضي التي لم يستردها المقطعون إلى التاج ، وفي قشتالة حصل التاج على أراضي المطرودين وقاسمهم نصف ثروتهم . وفي أول تشرين الأول أكتوبر سنة ١٦١٠م قرر مجلس المالية Council of finance الملحق بالعرش أن ممتلكات المسلمين الإسبان في أوكانيا Ocana ومدريد قد بيعت في غالبها ، ودفع فيها ٧٥ مليون مارافيد(٤٨) وهو مايساوي ٢٠٠,٠٠٠ دوكات(٤٩ ، ٥٠) . ورغم أيلولة كثير من

---

(٤٤) الليبرا Libra وأيضا Iliura عملة بلنسية وقطلونية (كاتالونية) كانت تحسب بالجنيهات والشلنات Sous والبنسات Diners
H. Kamen, *op. cit.*, p. XII

(٤٥) الدوكات Dukat وتسمى أيضا Ducado وحدة نقد كانت تساوي ١١ ريالا Reale أما الـ Escudo فهي عملة ذهبية في الأساس تساوي ١٠ ريالات أو ٣٤٠ مارافيدس Maravides . والدوكات تستخدم فقط للدفع داخل قشتالة أما خارج قشتالة فيكون الدفع بالفضة ويحسب بالـ Escudos . وهذا الأخير أقل قيمة من الـ Maravedis
H. Kamen, *Ibid.*, p. XII

(٤٦) أحد أجزاء الليبرا وهي بمثابة البنس بالنسبة للجنيه
H. Kamen, *Ibid.*, p. XII
وانظر أيضاً حاشية رقم (٤٣) .

(٤٧) H.C. Lea, *op. cit.*, p. 369

(٤٨) المارفيد ، وكان الإسبان يسمونها العملة البربرية ، وهي عملة كبيرة ، وكانت أصغر وحدات النظام النقدي القشتالي ، وكان الريال مثلا يساوي ٣٤ مارافيد ، أما الدوكات فكانت تساوى ٣٧٥ مارفيد
E.J. Hamilton *op. cit.*, p. 38
H. Kamen., *op. cit.*, p. XII
وانظر أيضا حاشية (٤٤) .

(٤٩) انظر حاشية (٤٤) .

(٥٠) لم يكن النظام النقدي موحداً في إسبانيا حتى بعد أن توحدت سياسياً ، ولم يكن نظام المكاييل والموازين أيضا موحداً ، وكانت نقاط الجمارك تفصل مناطق إسبانيا بعضها عن البعض الآخر ، فلم يكن توحيد إسبانيا إلا شكليا فقط .
فالأروبا Arroba كانت معيارا لقياس السوائل يختلف من منطقة لأخرى ، وكانت الأروبا أيضا وحدة وزن لوزن الصوف والتومباك فقط . وهي في هذه الحالة تساوي ١٥ رطلاً إسبانيا ، والمائة رطل كانت تساوي ٩٧ رطلا إنجليزيا . وكان القبيز Cabiz وحدة كيل الغلال ، وكان في قشتالة يساوي ١٢ فانيج Fanegas في قشتالة ، وتختلف قيمته في المناطق الأخرى . أما التونيلادا Tonelada

الممتلكات للتاج إلا أنها لم تدخل الخزانة العامة ، وإنما وزعت على المحاسيب . ففي خطابات أرسلها السير فرنسيس كوتنجتون Francis Cottington السفير البريطاني في مدريد إلى لورد سالسبوري ، في ٤ آذار (مارس) وفي ١٦ آيار (مايو) سنة ١٦١٠م ذكر أن الملك لم يستخدم العائد في مصالح الدولة الداخلية ، وإنما قسّم هذه العوائد على محاسيبه ، فقد حصل ليرما Lerma على ٢٥٠,٠٠٠ دوكا ، وابن ليرما على ١٠٠,٠٠٠ وابنة ليرما على ٥٠,٠٠٠ ، ودوق Ucedo على ١٠٠,٠٠٠[٥١] . وفي تقرير مؤرخ في ٧ كانون الثاني يناير سنة ١٦١٣م أوضح أن ما آلت ملكيته للدولة من أملاك المسلمين المطرودين بلغ ٤٧١,٣٥٥ ليبرا و ٥صولد ، استخدم منها ٤٩,١٨٨ ليبرا في الأمور والرواتب المتعلقة بمحاكم التفتيش ، و٨٤,٩٤٩ ليبرا للسكان الجدد في شكل قروض يتحتم دفع فوائدها ، وتم إنفاق مبالغ أخرى لإعادة تعمير بعض القرى[٥٢] .

وثمة منهج بحثي آخر يمكن أن نسلكه لمعرفة ماحاق بالاقتصاد الإسباني من انهيار في الفترة موضوع الدراسة ، وهو تتبع نوع من أنواع التجارة الإسبانية كمثال ، ولتكن هذه التجارة هي تجارة الصوف ، ففي بحث وثائقي مُعْتمدٍ على جداول الضرائب الرسمية المفروضة على تصدير الصوف الإسباني ، قام بها كارلا فيليبس Carla Rahn Phillips يذكر الكاتب أن الأرقام تشير إلى أن الصادرات من الصوف الإسباني قد شهدت انهياراً منذ سنة ١٥٥٠م وطوال قرن كامل[٥٣] . ويلاحظ أن سنة ١٥٥٠م هي الحد الزمني الذي بدأ فيه المؤلف بحثه لاعتبارات عملية ، وهي توفر الإحصاءات بالنسبة له ، فليس معنى هذا أن تجارة الصوف الإسبانية كانت مزدهرة منذ مطلع القرن ، وإنما أورد المؤلف فترة الانهيار تلك ، توطئة للقول بأنها عادت فازدهرت ازدهاراً نسبياً بعد سنة ١٦٥٠م[٥٤] . ويعلل الكاتب هذا الانهيار بالظروف السياسية والاقتصادية لإسبانيا ، كما يبين أن الصادرات الإسبانية من الصوف كانت لفترة طويلة تتخذ طريقها إلى جنوه بالذات[٥٥] . وإذا علمنا

وهي الطن القشتالي فكان يساوي ٢٠ قنطاراً Quintals أو مائة وزنة Weight أما خارج قشتالة فتختلف القيمة الوزنية والعيارية له . أما النظام النقدي ، فكان المارافيد هو الوحدة الأساسية في قشتالة ، والليبرا هي الوحدة الأساسية في بلنسيه وكاتالونيا (قطلونية) وكانت الدوكات سارية داخل قشتالة أما خارجها فالـ Escudo أكثر انتشارا .

H. Kamen, *Op. Cit.*, pp. xi, xii, xiii.

وانظر أيضا الخريطة رقم (١)

وراجع الحواشي : (٤٣) ، (٤٤) ، (٤٥) ، (٤٧) .

(٥١) H.C. Lea, *op. cit., p. 373*

والدوق دي ليرما كان صفياً وخليلاً ووزيراً للملك فيليب الثالث ، وكان دي ليرما صاحب نفوذ على هذا الملك ، كما كان صاحب نفوذ على سابقه .

محمد عبد الله عنان ، **مرجع سابق** ، ص ٣٧٧ .

(٥٢) Ibid. p. 373

(٥٣) C.R. Phillips, *op. cit.*, p. 770

(٥٤) *Ibid.*, pp. 771 – 773

(٥٥) *Ibid.*, pp. 772 – 775

أن الصوف كان هو مادة التبادل الخارجي الرئيسية في تجارة إسبانيا[٥٦] أدركنا مدى ماحاق باقتصاد إسبانيا من انهيار .

ولايمكن تفسير هذا الانهيار الاقتصادي الذي حاق بإسبانيا بمجرد خروج المسلمين رغم أنهم كانوا عناصر منتجة ومُدَرَّبة ، وإنما كانت هناك عوامل كثيرة متشابكة تشابكاً معقداً ، كتورط إسبانيا في حروب الصراع الديني ، والحروب الإيطالية ، وحروب الأراضي المنخفضة ، إلا أن هذه العناصر جميعاً لاتدخل في نطاق بحثنا هذا ، الذي لايتناول إلاَّ تأثير المسلمين – وهو تأثير هام وخطير ، بل هو المؤثر الأول – وهذا التأثير الإسلامي ليس قصراً على المسلمين الإسبان ، وإنما هناك دور مسلمي شمال إفريقيا ودور الدولة العثمانية . وحتى هذا التحفظ لايعني التقليل من دور إخراج المسلمين على انهيار الاقتصاد الإسباني ، لذا كان من الضروري إفراد فقرة في هذا البحث لمناقشة بعض الآراء المتعلقة بعددهم .

إن المصادر تختلف اختلافاً شديداً في عدد المطرودين من إسبانيا ، فبينما نجد أن جودالاخارا Guadalajara يذكر أنهم حوالى ٦٠٠٠ر٦٠ ثم عاد فذكر أنهم ٤٠٠ر٠٠٠ بالإضافة للمهاجرين اختيارياً ، الاَّ أن نافاريت Navarrette يقدرهم بحوالي ٣٠٠٠ر٠٠٠ر٣ مسلم ، غير اليهود ، طردوا من إسبانيا على فترات مختلفة ، وقد اعتمد في هذا على قونزلايز دافيلا Gonzalez Davila المؤرخ الرسمي لفيليب الثالث وفيليب الرابع . أما فون دير هامر Von der Hammer فيختصر العدد إلى ٣١٠ر٠٠٠ غير الذين رحلوا بالسفن ، بينما يرفع ألفونسو سانشيز Alfonso Sanchez العدد إلى ٩٠٠ر٠٠٠ ، أما دي لافونتي De la Fuente فيجعلهم ١٢٠ر٠٠٠ ، أما دافيلا كولادو Davila Y Collado فيقول إنه بعد مقارنة الإحصاءات الرسمية يميل إلى أن عددهم ٥٠٠ر٠٠٠ ويميل لي Lea إلى هذا الرأي[٥٧] . ولايدخل في هذه التقديرات الأطفال الذين انتزعوا من آبائهم[٥٨] . ويرجع هذا الاختلاف في التقديرات لأسباب عديدة فقد سلك المسلمون الخارجون من إسبانيا طرقاً عديدة ؛ فقد خرج بعضهم عن طريق فرنسا برّاً[٥٩] ، وخرج بعضهم بالسفن من سواحل إسبانيا

---

(٥٦) *Ibid.*, pp. 770 – 771

(٥٧) H.C. Lea, *op. cit.*, p. 359

(٥٨) *Ibid.*, pp. 359 – 360

وكانت السلطات البرتغالية أيضاً تنزع الأطفال الذين لم يبلغوا ١٤ سنة من المسلمين عند طردهم من البرتغال ، ولقد خرج المسلمون البرتغاليون عن طريق إسبانيا أساساً بعد اتفاق إسباني برتغالي بعدم السماح لهم بمغادرة إيبيريا ومعهم مايملكون من ذهب وفضة أو أية منقولات نفيسة ، وكان القرار النهائي بطرد المسلمين من البرتغال سنة ١٤٩٧ . راجع في ذلك :

Archivo de Simancas, Inquisicion, Legajo Unico, **Fol. 4**

والتي قدم لها لي Lea عرضاً وجعل لها عنواناً إنجليزيا كالتالي :

انظر حاشية رقم (١)

(٥٩) H.C. Lea, *op. cit.*, pp. 340 – 41

الشرقية ، وآخرون خرجوا عن طريق سواحلها الجنوبية[٦٠] . كما أن تباعد الفترات الزمنية التي خرج فيها المسلمون تجعل من الصعب تقديم إحصاء دقيق عنهم ، كما أن الذين بخسوا المسلمين عددهم كان يَكْمن خلف تفكيرهم عصبية دينية تهدف لحرمان المسلمين الإسبان من حقوقهم الوطنية التاريخية . كما أن الأعداد القليلة نسبياً فيما سبق أن أوردناه من تقديرات كانت خاصة بفترة زمنية دون غيرها أو بمنطقة دون أخرى ، رغم عدم النص على ذلك ، وربما كان رقم الملايين الثلاثة رغم تواضعه هو أقرب الأرقام للصدق خاصة وهو تقدير مؤرخ رسمي لصيق بالبلاط . كما أن المسلمين الذين خرجوا عن طريق فرنسا بالذات لم يحظوا بالدراسة الكافية ، إذ يذكر لي Lea أن عدداً كبيراً يتراوح مابين ٢٠٫٠٠٠ و٢٥٫٠٠٠ قد عبروا الأراجون إلى نافار Navarre في مطلع القرن السابع عشر وعبروا الجبال إلى فرنسا . وقد قدم لنا الكتاب الإسبان صوراً عن معاناتهم ، خاصة وأن السلطات الفرنسية لم تسمح لهم بالعبور في بداية الأمر ، ولكنها عادت فسمحت لهم مقابل دفع دوكية لكل عابر ، وقد اشترى هؤلاء العابرون تراخيص لحمل السلاح ، ولكن بعد إنفاق نقودهم لشراء هذه التراخيص تم سلب الأسلحة منهم سواء على الجانب الإسباني أو الجانب الفرنسي . وفي فرنسا كان ينظر إليهم كسكان غير مرغوب فيهم . وفي إحدى رسائل هنري الرابع يتضح أنه سمح لهؤلاء المسلمين الذين تحولوا للكاثوليكية (أو تظاهروا باعتناقها) بالإقامة في المناطق الواقعة خلف الجارون The Garonne ودوردوني Dordogne . أما الراغبون في الارتحال إلى شمال إفريقيا فلهم الحرية في ذلك[٦١] .

وفي أيار مايو سنة ١٦٠٩م أرسل السلطان العثماني ، إسبانياً مسلماً هو الحاج إبراهيم كمبعوث شخصي لهنري الرابع ليكون ، أي الحاج إبراهيم ، وكيلاً دائماً للسلطان في مرسيليا لتسهيل مرور المهاجرين المسلمين ، وكانت سلطات إسطنبول تولي هذا الموضوع عناية فائقة ، وهذا ما تدل عليه مراسلات بهذا الشأن صادرة من الباب العالي إلى السلطات الفرنسية مؤرخة في ١٩ أيلول (سبتمبر) و٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٦٠٩م[٦٢] . وليس أدل على أهمية العامل السكاني في تخريب اقتصاد إسبانيا من أن المناطق الزراعية التي شغرت بطرد المسلمين كان يجري تعميرها على حساب أراضٍ أخرى لمجرد المظهر الكاذب لإقناع النفس وهماً ، بأن المسلمين لم يتركوا فراغاً ، ففي أوائل القرن السابع عشر تم إحلال ٢٢٫٠٠٠ ألف مسيحي من بلنسية في الأراضي التي كان يشغلها

---

(٦٠) بعض هؤلاء كان يسافر بالأجرة في بعض المراكب الأسبانية ، وبعضهم كان يحملهم مجاهدو البحر ، وبعضهم كانت ترحله الحكومة الإسبانية على حسابها . محمد عبد الله عنان ، **مرجع سابق** ، ص ٣٨٢ .

(٦١) H.C. Lea, *op. cit.*, pp. 341 – 342

وفي تقرير لمحاكم التفتيش ورد أن هؤلاء (البربر) لا يستمعون برغبة إلى العظات الدينية المسيحية وأن المراقبة الدقيقة لمن تحول للمسيحية منهم توضح أنهم كانوا يتغامزون ويشيحون بوجوههم أثناء سماع هذه العظات .

***Archivo Historico Nacional, Inquisicion de Va lencia, Legajo 5* Fol. 298**

وقد ذكر تفاصيل عن ذلك : محمد عبد الله عنان ، **مرجع سابق** ، ص ٣٦٣ ومابعدها .

(٦٢) H.C. Lea, *op. cit.*, p. 341

المسلمون المطرودون من بلنسية نفسها(٦٣) . وقد أدرك البعض خطورة ذلك ، ففي سنة ١٦٠٩م ، أي في ذروة الطرد النهائي للمسلمين الإسبان — فقد أعلن دوق ليرما احتجاجه على طرد المسلمين بتخليه عن المسيحية ، وإن كان هذا الإعلان مجرد تهديد وليس ارتداداً حقيقياً عنها . كما أعلن البعض احتجاجهم على التنصير الإجباري للمسلمين ، وحتى من تنصر من المسلمين ظلت نصرانيته موضع شك ، كما ظلوا موضع مراقبة دقيقة من السلطات الكنسية . وقد ذكر كامن Kamen أنه كان هناك مسلمون سريون ، أي يتظاهرون مجرد تظاهر بالمسيحية ، حتى القرن الثامن عشر ، وضبطت حالات واضحة نالت عقوبات رادعة سنة ١٧٢٨ ، وكانت هذه الحالات موجودة في كل إسبانيا ، ولكنها كانت أكثر ماتكون وضوحاً في غرناطة ، وقد ذكر كامن هذه الحقائق اعتماداً على وثائق سرية اطلع عليها في الأرشيف القومي التاريخي في مدريد Archivo Historico Nacional وهي وثائق تحمل الأرقام (Inq. 4755 – 58)(٦٤) .

وزاد من خطورة خروج المسلمين ، على الاقتصاد الإسباني ، أن الإسبان لأسباب كثيرة ، بعضها غير مفهوم ، كانوا يعانون من ارتفاع نسبة الوفيات بشكل صارخ ، كما كانوا يعانون من نقص في المواليد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فقد مات بالطاعون في الفترة من ١٥٩٦ إلى ١٦٠٢م أكثر من نصف مليون إسباني ، وفقاً لتقديرات الأرشيفات الإسبانية التي رجع إليها كامن في كتابه الوثائقي . وفي الفترة من ١٦٤٧ إلى ١٦٥٢ مات بالطاعون في أراجون وقشتالة

---

(٦٣) H. Kamen, p. 59, 218

ويذكر محمد عبد الله عنان ، **مرجع سابق** ، ص ٣٥٨ ما أصدره فيليب الثاني سنة ١٥٧٠ من نقل مسلمي غرناطة إلى أماكن مختلفة داخل البلاد .

راجع أيضا : محمد عبده حتامله : **التهجير القسري لمسلمي الأندلس** . عمان ، ١٩٨٢ . ص ٨٧ ومابعدها .

(٦٤) H. P. Kamen, *op. cit.*, p. 304

والواقع أن الذين تظاهروا بالتحول للمسيحية لم يكونوا في أي وقت من الأوقات موضع ثقة السلطات الإسبانية ، ففي وثيقة مؤرخة في ١٤ ايلول (سبتمبر) ١٥٢٤ أصدرها الرئيس العام لمحاكم التفتيش يتضح شكه في حقيقة مسيحيتهم . وفي وثيقة أخرى مؤرخة في كانون ثاني (يناير) ١٥٣٤ أرسل مانريك رئيس محاكم التفتيش بعض مبعوثيه لكتابة تقارير عن المسيحيين الجدد ، وفي ١٥٦١ ينصح رئيس محاكم التفتيش بمراقبة المسيحيين الجدد . وقد أشرنا للعناوين الإنجليزية لهذه الوثائق في حاشية (١) ، أما عناوينها الأصلية فنكررها هنا مرة أخرى :

- *Archivo de Simancas, Patronate Real, Inquisicion, Legajo unico* **Fol 38, 39**
- *Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 4,* **Fol 262**
- *Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 77,* **Fol 228**

ومن المراجع التي أشارت بإيجاز إلى أن المسلمين الذين تحولوا للمسيحية لم يكن تحولهم إلا شكليا ، وإنهم لم يكونوا موضع ثقة :

Derek W. Lomax, *The Reconquest of Spain,* p. 172

وقد ذكر باحث عربي يعرف الإسبانية وأتيحت له فرصة مراجعة أرشيفاتها نماذج أخرى لمسلمين كتموا إسلامهم ووصلوا إلى مرتبة كنسية كبيرة ، ولما كشف أمرهم تم إعدامهم . وكانوا من منطقة استرامادورا Estramadora . راجع : محمد عبده حتامله ، **التهجير القسري لمسلمي الأندلس** ، (عمان ، ١٩٨٢) ، ص ٨٢ .

وحدها أكثر من نصف مليون إسباني وفقاً لتقديرات نفس المصادر الأرشيفية(٦٥) .

وبالإضافة لهذا فقد لاحظ المراقبون أن الأسرة الإسبانية قليلة العدد ، ويقصدون بذلك أن القدرة على الإنجاب قليلة ، ففي النصف الأول من القرن السابع عشر ذكر الكاتب برتوت Bertaut معلقا «أن الأطفال ليسوا كثيرين هنا» وظل هذا ملحوظاً حتى بعد منتصف القرن السابع عشر ، فقد ذكرت لادي آني فانشو Lady Anne Fanshawe سنة ١٦٦٥ أن الإسبان «نادراً مايكون لديهم أطفال كثيرون» . ورغم عدم توفر الإحصاءات السكانية في القرن السادس عشر بنفس القدر الذي توفرت لدينا عن القرن السابع عشر ، الاَّ أن الباحثين الإسبان لاحظوا من خلال المتوافر من الأرقام ومن خلال بعض الشواهد أن الإسبان كانوا يعانون من انخفاض نسبة المواليد في القرن السادس عشر أيضاً ، كما لاحظوا أن ٤٧٪ من حالات الزواج كانت تنقطع بموت أحد الطرفين قبل اكتمال الأسرة(٦٦) . كما أنهم لاحظوا أن الطفل الأول عادة مايولد بعد عشرين شهراً من الزواج ، وهو أمر فيما يقول كامن – مألوف في أوربا الكاثوليكية(٦٧) .

ومن الأمور الغريبة أن الباحثين الغربيين كانوا يؤكدون على ارتفاع نسبة المواليد بين المسلمين الإسبان ، لدرجة أخافتهم وجعلت بعض الإسبان المتعصبين يعتقدون أن المسلمين لو استمروا في تزايدهم المرتفع ، نتيجة ارتفاع نسبة مواليدهم ، فإنه من المحتمل أن يغمروا إيبيريا كلها(٦٨) .

ورغم هذه الظروف الإسبانية ، التي كانت توضح أهمية المسلمين الإسبان للأرض والمصنع وحركة العمران ، الاَّ أن الروح الصليبية كانت طاغية عمياء لدرجة أنه كان هناك مجلس خاص يسمى بالمجلس الصليبي The Council of Crusade مهمته متابعة حرب البربر Moors وفرض الضرائب اللازمة لذلك ، وتلقي التمويل من البابا ، وقد ظلت سلطة هذا المجلس قائمة حتى نهاية القرن السابع عشر ، تساهم في إصدار التشريعات المدمِّرة المخرِّبة ، رغم كل محاولات الإصلاح(٦٩) .

---

(٦٥) H. Kamen, *op. cit.*, p. 39

(٦٦) *Ibid.*, p. 40

(٦٧) *Ibid.*, p. 41

(٦٨) ذكر ذلك Lorezo Priuli سنة ١٥٧٥ ، انظر H.C. Lea, *op. cit.*, p. 272

وأكد هذه الحقيقة سرفانتس دي سافدرا (١٥٤٧ – ١٦١٦) وهو من أعظم أدباء إسبانيا انظر : محمد عبد الله عنان ، **مرجع سابق** ، ص ٣٦٥ ، ٣٧٨ . وانظر أيضا لوي كاردياك ، **المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون ، المجابهة الجدلية** ، ترجمة د . عبد الجليل التميمي ، (تونس ، منشورات المجلة التاريخية المغربية ، ١٩٨٣) ، ص ١٤٥ .

(٦٩) J. Lynch, *Spain*. Oxford, 1969. **vol. 2.** pp. 271 – 272.

Antonie Brunel, *A journey into Spain,* (London, 1970), p. 18.

H. Kamen, *op. cit.*, p. 24

الأثر العثماني ، وجهاد شعوب البحر المتوسط الإسلامية

يرى معظم الكتّاب الغربيين أن العثمانيين مسؤولون عن التوجه الأوروبي (البرتغالي الإسباني) نحو الطرق الغربية ، بسبب تَحَكّم العثمانيين في تدفق التجارة الشرقية ، وبخاصة تجارة البهار ، التي كانت ترد لأوروبا من موانيء الشرق الأدنى ، وقد بدأ هذا التوجه في القرن الخامس عشر باكتشاف سواحل إفريقيا المطلة على الاطلنطي ، واندفاع البرتغاليين إلى الهند وجزر الشرق الأقصى ، والاستعمار الإسباني الجديد(٧٠) .

ولكن كولز ، وهو باحث اختصاصي في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ، يقول ماترجمته الدقيقة : «إذا ماوضعنا في اعتبارنا التتابع الزمني وحده Chronological grounds فإن ماذكر آنفاً لايعدّ تفسيراً مقنعاً . فقد أبحر بحارة هنري الملاح قاصدين الدوران حول إفريقيا حتى قبل أن يستولي العثمانيون على القسطنطينية . كما أن فاسكو داجاما قد وصل إلى ساحل المالابار Malabar في الهند ، وكذلك قام ألفونسو البوكرك Alvonso de Albuquerque بنَشْر شبكة من المحطات التجارية المحصنة عبر الشرق الأقصى والمحيط الهندي ، قبل أن يقوم سليم الأول بفتح المراكز التجارية في سوريا ومصر»(٧١) ، ثم يقول : «وبناء على ذلك ، فإن المبادرات البرتغالية ثم الإسبانية لكشف الطرق الغربية ، بدلاً من أن تكون نتيجة لتدخل الأتراك(٧٢) في تجارة البهار ، فإن نقيض ذلك هو الذي يَقْرُب للحقيقة»(٧٣) . لقد كانت أوروبا هي المبادرة بالعدوان ، كما يؤكد ذلك كولز ، فمنذ سنة ١٥٠٥م حتى وفاة الملك عمانوئيل الأول King Manuel I في سنة ١٥٢١م نجد البرتغاليين انطلاقاً من قواعدهم التي حصلوا عليها حديثاً في شرق إفريقيا وآسيا يعملون وفق سياسة مدروسة حققت في المدى القريب نجاحاً باهراً لاستئصال كل المصالح الإسلامية في تجارة البهار . ولقد كتب أحد البرتغاليين المعاصرين لهذه الفترة جَذِلاً مُهَلِّلا : «لقد حوصر محمد ، ولا يمكنه أن يتقدم أو ينساب أكثر مما فعل .. والحقيقة أن محمداً(٧٤) سيُحطَّم ويُحطم .. ولا خيار له سوى ذلك ، فأكثر مايطمع فيه هو أن يكون له مجرد وجود»(٧٥) .

وليس أدل على أن الرغبات الكنسية في طرد المسلمين كانت تتعارض مع رغبات الناس ماورد في استفتاء أجرته محاكم التفتيش نفسها سنة ١٥٩٠ إذ وجه المفتش العام كيروجا Quiroga باسم الملك استفتاء موجزه : هل نطرد المسلمين أم نبقيهم ، وماهي الحجة في كل حالة ؟ ويذكر التقرير (الوثيقة) أنه كان هناك تلكؤ ، أو عدم رغبة حاسمة في الطرد .

Archivo Historico Nacional, Inquisicion de Valencia, Legajo 5, No. 1, **Fol. 254**

عن العنوان الإنجليزي الذي وضعه لي للوثيقة راجع حاشية (١) .

(٧٠) P. Coles, *op. cit.*, p. 107

(٧١) *Ibid.* pp. 107 – 108

(٧٢) يقصد العثمانيين والواقع أن كولز يستخدم الترك بمعنى العثمانيين في معظم كتابه .

(٧٣) P. Coles, *op. cit.*, p. 107

(٧٤) أي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، والمقصود هنا (المسلمون) .

(٧٥) *Ibid.*, p. 107

ويمكن تفسير حملات العثمانيين وسياستهم التجارية بعد سنة ١٥١٥م كردّ فعل فعَّال لهذه الأزمة ، سيطرة البرتغاليين على تجارة البهار وتهديد المصالح الإسلامية عامة – فقد أتاح غزو سوريا ومصر ١٥١٦ – ١٥١٧م للعثمانيين السيطرة على القاهرة والاسكندرية وبيروت ، وهي الموانيء الرئيسية في الشرق الأدنى التي تمر تجارة التوابل عَبْرها . كما أن استيلاء العثمانيين على جزيرة رودس سنة ١٥٢٢م كان ضرورياً لتحقيق الأمن للممرات البحرية بين هذه المراكز والعاصمة العثمانية . وقد بذلت الحكومة العثمانية خاصة في الفترة من ١٥٢٠ إلى ١٥٣٠م جهوداً كثيفة لجعل اسطنبول مركزاً لتجارة البهار تحت إشراف حكومي ، وأن يتم التصدير إلى أوروبا عبر نهر الدانوب ، بحيث يكون النقل عبر المتوسط إلى المدن الإيطالية أقل قيمة . وهذه السياسة أضرت بقدر بالغ بالمحتكرين التقليديين لهذه التجارة ، وهم تجار مصر وسوريا والبندقية . وعلى هذا فإن حروب سليمان القانوني ، فيما يرى كولز ، في البلقان ليس لها إلا تفسير منطقي واحد ، وهو أنها محاولات للسيطرة الكاملة على طرق التجارة المؤدية إلى وسط أوروبا عبر نهر الدانوب ، وعلى هذا فإن الفرضيَّة القائلة بأن التوسع العثماني هو الذي أجبر الإيبيريين على الحركة الكشفية ، فرضية غير صحيحة ولا تَصْمد أمام نقاش(٧٦) .

فالروح الصليبية وليس المصالح الحقيقية هي التي كانت تحرك القوى الإيبيرية التي يهمنا منها هنا إسبانيا باعتبارها موضوعاً لهذا البحث . ففكرة استرداد الأراضي التي استولى عليها الكفرة (يقصدون المسلمين) كانت فكرة يشعل فتيلها الكنسيون والمتعصبون . وهذه الروح هي التي أدت إلى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م ، أو ماتسميه بعض المراجع الأوروبية باسم «المملكة المغربية» ، وبين سنة ١٥٠٢ و١٥١١م كانت التجريدات العسكرية يجرى تسييرها عبر المتوسط إلى مراكش (المغرب الأقصى) . كما كانت المواجهة العسكرية البحرية مع الأمبراطورية العثمانية في القرن السادس عشر ، من وجهة النظر الإسبانية ، استمراراً منطقياً للنضال الذي بدأ منذ فترة طويلة ، ولم يكن بحال أمراً طارئاً يمكن التخلي عنه . ومما زاد هذه الروح الصليبية سُعاراً ، أن إسبانيا كانت تضم بين جنباتها عدداً لايستهان به من المسلمين ، وكانت الحكومة الإسبانية تخشى أن يؤدي التوسع العثماني إلى تشجيع المسلمين في داخلها على الثورة ، وتشجيع الذين تظاهروا باعتناق المسيحية على العودة جهاراً لدينهم ، لهذا كان إسراع إسبانيا بخوض غمار الحرب ضد الدولة العثمانية وسكان شمال إفريقيا ، راجعاً في بعض جوانبه لهذا السبب الداخلي(٧٧) .

---

(٧٦) *Ibid.*, p. 107 – 108

(٧٧) *Ibid.*, pp. 124 – 125

ومن المراجع التي تعرضت للاتصالات بين سكان شمال إفريقيا ومسلمي الأندلس بإيجاز شديد جدا :

Charles Petrie, *A short history of Spain,* (London: Sidgwick and Jackson, 1975), p.40

وقد حمَّل هذا الجهد الحربي المجتمع الإسباني والاقتصاد الإسباني إجهادات وتوترات متعددة . فحملات شارل الخامس ضد الجزائر سنة ١٥٤١م ، وحملات جيان أندريا دوريا Gian-Andrea Doria ضد جزيرة جربة Djerba سنة ١٥٦٠م ، قد قذفت إلى حيث لاعودة بآلاف الجند والبحارة وبسفن ضخمة مكلِّفة في سبيل هدف غير واضح . ولمواجهة هذه التكاليف زيدت الضرائب على الطبقات العاملة في إسبانيا ، بينما ظلت طبقة النبلاء مستثناة من هذه الضرائب بدرجة كبيرة . لهذا أصبح الفقر متوطنا في الطبقات الدنيا من المجتمع الإسباني ، وعانى الاقتصاد من تخريب ودمار دائمين . فتدفق كنوز أمريكا في القرن السادس عشر على إسبانيا كان ينبغي أن يكون سبباً في إحداث تنمية اقتصادية مزدهرة ومضطردة . إلا أن وطأة الضرائب التي فرضت لمواجهة تكاليف الحروب قد حرمت التجار والمنتجين من العملاء الذين أضحت جيوبهم خاوية ، فأنى لهم بالقدرة على الشراء . ولم تكن إسبانيا كما كان يبدو أكثر القوى الأوروبية ثراءً إلاَّ من الناحية النظرية فقط ، فواقع الأمر ، فيما يقول كولز ، أنه « كان ثراءً عقيماً غير مُجْدٍ ، إذ لم يكن للطبقات المنتجة منه نصيب ، وإنما كان النصيب للطبقات غير المنتجة . ولقد انعكست تعاسة إسبانيا وبؤسها على توابعها (مستعمراتها) في البحر المتوسط ، فكثير من توابعها في المتوسط كانت تقف في خط المواجهة الأول في هذه الحرب البحرية في مواجهة العثمانيين ، بينما حملوا من الضرائب قدراً مساوياً لما كان مفروضاً على أهل إسبانيا ذاتها(٧٨) رغم بُعْد أهل إسبانيا نسبياً عن أضرار الحرب البحرية .

ففي صقلية وجدنا أن آخر نائبين للملك وهما فرانتي جونزاجا Ferrante Gonzaga وخوان دي فيجا Juan de Vega قد فرضا ضرائب محلية باهظة للإنفاق على الإنشاءات الدفاعية الساحلية ولإنشاء عشر سفن شراعية كبيرة ولدفع رواتب المشاة الإسبان وتدريب المتطوعين المحليين ، لصّد الغارات الجزائرية العثمانية ، وكان المزيد من الضرائب يفرض كلما تضاعف نجاح العثمانيين ، فقد كانت الضرائب المفروضة على أهل جزر البحر المتوسط تتناسب تناسباً طردياً مع الانتصارات العثمانية ، فقد تحملت صقلية ضرائب غير عادية عندما ساد توقع هجوم عثماني في أعقاب الفشل المسيحي الممثل في هزيمة الحملة الإسبانية على جزيرة جربة سنة ١٥٦٠م(٧٩) . وعندما كان الأسطول الإسباني يحتشد في مسينا Messina لتقديم التموينات والعون العسكري لمالطة التي كان العثمانيون يحاصرونها سنة ١٥٦٥ كانت الضرائب المفروضة على السكان هي الحل الوحيد لدعم هذا المشروع . وفي سنة ١٥٧٣م احتج الرئيس الصقلي ترانوفا Terranova على فيليب الثاني ذاكراً أن جباية الضرائب قد بلغت منتهاها ، وعبَّر عن مخاوفه إذا استمرت الضرائب بنفس معدلها أن يتزلزل أركان الحكم الإسباني في الجزيرة(٨٠) . إلا أن الموقف بدأ يتحسن نسبياً منذ سنة ١٥٧٥م ،

---

(٧٨) P. Cloes, *op. cit.*, p. 126 – 127

(٧٩) *Ibid.*, pp. 127 – 128

(٨٠) *Ibid.*, p. 127

والتفسير الوحيد لذلك فيما يرى كولز هو تقلص حجم العمليات البحرية بحِدَّة في الأعوام التي تلت معركة ليبانتو[٨١] . إلاّ أن هذا الوضع لم يستمر خاصة وأن السلطان العثماني كان قد صرح بعد هذه المعركة قائلا : «إن الكفرة لم يزيدوا على أن نَتَفوا بضع شعرات من لحيتي ولكنها ستنمو من جديد»[٨٢] .

ولقد ارتبطت حركات المسلمين الإسبان داخل إيبيريا بالانتصارات الإسلامية خارج إيبيريا ، وقد كان المسلمون الإسبان يمعنون في ثورتهم كلما وصلتهم أخبار الأعمال البطولية التي كان يقوم بها مجاهدو البحر ، فقد حدث اضطراب شديد «قام به المسلمون الإسبان في غرناطة أثناء حصار مالطة سنة ١٥٦٥م وكان المسلمون الإسبان المطرودون يمثلون عنصراً بارزاً في القوات العثمانية المحاصرة لمالطة» وقد أدى هذا إلى شك عميق في أجهزة الحكومة الإسبانية ، وهذا بدوره أدى إلى أساليب القمع والوحشية البالغة ضد المسلمين الإسبان ، وهذا أدى بدوره إلى انفجار ثورة إسلامية عارمة سنة ١٥٦٨ . وبحلول عام ١٥٦٩ بلغ عدد المتمردين ١٥١,٠٠٠ ، وتزامنت هذه الاضطرابات مع فترة كانت الحكومة الإسبانية تعاني فيها من مصاعب جمة ، فقد كانت القوات العسكرية الرئيسية غائبة عن إسبانيا بقيادة دوق ألبا Duke of Alba في الأراضي المنخفضة ولم تكن القوات البحرية المكرسة لخفر السواحل قادرة على قمع الثورة أو منع الإمدادات القادمة من الخارج ، ولم تنته ثورة المسلمين إلاّ بعد أن خاض ضدهم المسيحيون الكنسيون حرباً شرسة صليبية بربرية لاهوادة فيها في خريف سنة ١٥٧٠م . ويهمنا في هذا الصدد مااتخذته الحكومة الإسبانية من إجراءات بعد معركة ١٥٧٠م التى أشرنا إليها ، إذ تم طرد عدد كبير إلى خارج إسبانيا ، كما تم نقل عدد كبير منهم من غرناطة إلى مناطق أخرى كقشتالة القديمة واستريمودورا Estremodura وجاليشيا Galiciaوقد أدى هذا إلى تصدير مشاكل المسلمين لمناطق لم تكن قد عانت منها من قبل . وكان الهدف من هذا الإجراء هو خلخلة الكثافة السكانية الإسلامية في بعض المناطق ، كما عملت السلطات الإسبانية على فصل مسلميها عن حلفائهم في شمال إفريقيا بإبعادهم عن المناطق الساحلية وتم هذا المنع وطبق فعلاً في منطقة الأندلس (مقاطعة أندوليسيا) سنة ١٥٧٩م ، وطبق المنع في بلنسية سنة ١٥٨٦م . وكتب مسؤول حكومي سنة ١٥٨٨م في تقرير له أنه «يجب تصنيف كل من المسلمين الإسبان Moriscos كأعداء لنا» يقصد سواء ادّعوا اعتناق المسيحية أم لا . وقد أدت هذه النظرة بالإضافة إلى الضغط الواقع على المسلمين إلى انخراطهم في سلك المقاومة السرية والأعمال الانتحارية ، وهي ماتسميه المراجع الغربية «بأعمال اللصوصية والجريمة كأسلوب حياة» ، وظل الأمر كذلك حتى أعلنت الحكومة إفلاسها التام ، فتم إخراج المسلمين نهائياً كسياسة لا رجعة فيها ، أو بتعبير أدق إخراجهم

---

(٨١) *Ibid.*, p. 127

(٨٢) *Ibid.*, p. 91

كعنصر ، سواء اعتنقوا المسيحية أم تظاهروا باعتناقها ، أم كانوا مسلمين ظاهراً وباطناً[٨٣] مع ماتبع هذا من نتائج أَلْمَعْنا لبعضها في الصفحات السابقة .

أثر العثمانيين وحركة الجهاد البحري في توجه أهل جنوه إلى إيبيريا ، ودور الجنويين في تخريب الاقتصاد الإسباني

اتجه أهل جنوه في بداية الأمر للبرتغال ، باحثين عن ميادين للعمل والاستثمار غير تلك التي فقدوها في الشرق . فكلما انتعشت البرتغال وجدنا بيوت أعمال الأرستقراطية الجنوية تنتشر في البرتغال ، كمؤسسة دوريا Doria وسنتريون Centurione وكاتانيو Cattaneo وسلفاجو Salvago ، وسبينولا Spinola ثم مالبثوا أن انتشروا في إسبانيا ، فأسهموا في خرابها منتهزين فرصة انشغال إسبانيا في حروب صليبية لامعنى لها . ويقول كولز ماترجمته «ولقد أظهر البحث في دور الوثائق في إشبيلية كيف أن أهل جنوه كانوا هم الوسطاء الرئيسيين في التجارة بين إسبانيا والعالم الجديد خلال الفترة من ١٥٠٢ إلى ١٥٢٠م باعتبارهم حملة الأسهم غير المعلنين (السرِّيين) في بيوت التجارة الإسبانية ، كما كانوا هم أصحاب وكالات التأمين البحري والمشتغلين بالإقراض ، وكانت ملحقات التاج الإسباني في البحر المتوسط كسردينيا والصقليتين قد أصبحت قرص عسل سائغ في أفواه الجنويين بفضل انتشار مستوطناتهم التجارية هناك في أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر»[٨٤] . وفي أسبانيا ذاتها اشتكى أعضاء برلمان قشتالة بمجلسيه سنة ١٥٢٨م من أن تجارة الصوف والحرير والصلب والصابون أصبحت حِكْراً على أهل جنوه . وزاد التغلغل الاقتصادي لأهل جنوه في إسبانيا عندما انفصل الأدميرال الجنوي دوريا Andrea Dorea عن خدمة فرنسا ، وانضم إلى خدمة التاج الإسباني ، بينما كان يحكم في نفس الوقت قبضته على موطنه جمهورية جنوه . وقد كان مركز الأرستقراطية الجنوية قد تدعم نتيجة استثماراتهم في إسبانيا . وقد كانت الأرستقراطية الجنوية هي المستفيد الأول من تدفق المعادن النفيسة خاصة الذهب على إسبانيا . ففي سنة ١٥٥٨م تقدمت شركة جريمادي الجنوية Grimadi بمليون سكودي ذهبي Gold Scudi كقرض واحد للتاج الإسباني . وقروض كهذه كانت تصحب بنسبة فائدة عالية تتراوح مابين ١٠٪ و١٤٪ ، وكانت تحسب كقروض طويلة الأجل ، وكان الدائنون يستولون على أقاليم ومناطق بأكملها ويحصلون على حجج ملكية Titles واحتكارات تجارية وصناعية .. إذا تخلف التاج عن السداد . وفي مواجهة تلك القروض والصفقات كرر البرلمان الإسباني سنة ١٥٤٢م وسنة ١٥٩٢م اعتراضه الذي تقدم به سنة ١٥٢٨م ، احتجاجاً على تطفل (الجنويين على الاقتصاد الإسباني) . ووفقا لحساب جرى سنة

---

(٨٣) *Ibid.*, p. 128

(٨٤) *Ibid.*, p. 141

١٥٩٥م دفعت إسبانيا مايساوي ٢٤ مليون دوكية مباشرة إلى الجنويين لإعادة دفع الديون وهذا المبلغ يساوي قيمة المعادن النفيسة الإسبانية خلال السنوات الست والأربعين السابقة على عام ١٥٩٥م(٨٥) .

ولقد أدى خلق دوريا لعلاقات قوية ورسمية مع إسبانيا ، إلى جانب الحاجة الإسبانية الماسة للسفن الحربية التي تستطيع تحمل الدفاع البحري ضد العثمانيين وسكان الشمال الإفريقي .. كل هذا قد فتح فرصاً جيدة أمام أهل جنوه في مجال التعاقدات البحرية . فأسطول جنوه بقيادة دوريّا كان هو ضمان شارل الخامس للسيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية ، كما كان هذا الأسطول يشكل خط الدفاع الأول عن العالم المسيحي ضد (الهجوم الإسلامي) وكانت نواة هذا الأسطول مكونة من سفن يمتلكها دوريا شخصياً وكان يقوم بتأجيرها لإسبانيا . إذن فقد كان دوريا متعاقداً بحرياً جاهزاً وهاماً إذ كان مالكا لاثنتي عشرة سفينة عندما التحق بخدمة شارل الخامس سنة ١٥٢٨م . وفي سنة ١٥٥٢م كان دوريا يمتلك ٣٩ سفينة Galleys . ولقد كانت هذه السفن التي يمتلكها دوريا هي التي «تحكم إيقاع ونبض الجهود الحربية الإسبانية في البحر المتوسط ضد العثمانيين في السنوات الوسطى من القرن السادس عشر»(٨٦) . إلى هذا الحد كانت إسبانيا عملاقا فخاريا . وكان دوريا مسؤولا عن تنظيم رحلات الزيارات الضرورية التي يقوم بها شارل الخامس خارج إسبانيا . وثمة عدد آخر من النبلاء الليجوريين (الجنويين) قد سلكوا مسلك دوريا في مجال التعاقدات البحرية ، خاصة أسر نيجرون Negrone ، وامبريال Imperiale ، وجريمالدي . Grimaldi ، واوسوديماري Usodimare ، وسيجولا Cigola(٨٧) .

وإذا ماوضعنا في اعتبارنا هذه المعلومات الهامة عن التغلغل المالي والاقتصادي للجنويين في إسبانيا ، اتضح لنا كما يقول كولز ، أن الجنويين قد لعبوا دورهم الجديد من خلال خوف الإسبان من الخطر العثماني . وقام الجنويون بدورهم الجديد هذا بحثاً عن ميادين جديدة بعد أن فقدوا مستعمراتهم التجارية في بحر إيجة والبحر الأسود . وأخيراً فقد كانت هجمات سكان المغرب والتي

---

(٨٥) *Ibid.*, p. 141

وقد لاحظ الرحالة Defourneaux أن معظم التجارة داخل إسبانيا لايباشرها الإسبان . انظر :

M. Defourneaux, op. cit., pp. 20 – 21

وقد بلغ من حدة الأزمة الاقتصادية الإسبانية أن تخصصت فئة من الكتاب في متابعتها وتحليلها وعرفوا في التاريخ الإسباني باسم Arbitristas ورغم تحذيراتهم المبنية على تحليلات علمية إلا أن المتعصبين والمندفعين ورجال البلاط كانوا أعلى صوتا . انظر :

E.J. Hamilton, *Decline of Spain,* pp. 20 – 30

H. Kamen, *op. cit.*, p. 69

J. H. Elliot, *Imperial Spain,* (London, 1963), p. 67

(٨٦) P. Coles op. cit., p. 142

(٨٧) *Ibid.*, p. 143

كان يقودها في الأربعينات من القرن السادس عشر برباروسا ذو البأس الشديد ، أحد العوامل التي ساعدت الجنويين على إحكام قبضتهم على الاقتصاد الإسباني . «لقد كانت كميات الذهب الأمريكي الإسبانية والتي كانت تعتبر المورد الرئيسي والضمان لعظمة إسبانيا تشحن عادة بعد عبورها الأطلنطي من إشبيلية إلى الأراضي المنخفضة . ومن أنتورب Antwerp تدور عبر أوروبا الشمالية والغربية والوسطى ليتم المقايضة عليها بالبضائع والخدمات التي تدعم نظام الهسبرج الإسباني . ومنذ أوائل السبعينات من القرن السادس عشر أصبح ثمة طريق مغاير يزداد استخدامه ، فالمعادن الأمريكية النفيسة أصبحت تنقل الآن عبر البحر المتوسط في سفن من برشلونة إلى جنوه . وسرعان ما حلت المدينة الليجورية (جنوه) محل أنتورب كمركز توزيع ضخم . وعلى هذا أصبحت جنوه هي العاصمة المالية لأوروبا .. وكان استخدام هذا الطريق مرتبطاً بالحروب البحرية الكبرى في البحر المتوسط .. لقد اتجهت معظم موارد الأمبراطورية الإسبانية ذات القيمة إلى هذه الجبهة المكلفة . وقد استمر هذا الوضع الاقتصادي لجنوه حتى بدأ فيض سبائك الذهب الإسباني الأمريكي يميل للنضوب في العقد الثالث من القرن السابع عشر»[٨٨] .

خاتمـة

لقد حاولنا في الصفحات السابقة ، الاقتصار على الأثر الاقتصادي قدر الإمكان لكن حقيقة الأمر أن دراسة التاريخ الحضاري ، دراسة متشابكة يتداخل بعضها مع البعض الآخر ، فَمِمَّا لايبعد كثيراً عن الأثر الاقتصادي للمسلمين على إسبانيا في الفترة موضوع الدراسة ، أن التفات إسبانيا لحروب البحر المتوسط وصراعها مع العثمانيين وعدم اتباعها سياسة تسامح وحكمة مع المواطنين المسلمين ، قد أدى إلى أن توحيد إسبانيا لم يكن إلا توحيداً شكلياً . فقد كان مجرد زواج فرديناند وإيزابيلا ، لايعني سوى البداية لتلتف سائر مناطق إسبانيا حول الملكية الوليدة لكن هذا لم يكن ليتم دون فترة طويلة من الجهود الإدارية الصبورة ، إلا أن حروب البحر المتوسط الصليبية قد استنزفت الجهد والمال والطاقة والوقت اللازمين لإنجاز هذا المشروع ، مما اضطر الحكومة إلى التنازل والتغاضي عن كثير من الأمور الداخلية ، وانصرفت بذلك عن الاهتمام بالوحدة الحقيقية ، «فبقيت الوحدة مجرد واجهة كاذبة»[٨٩] .

---

(٨٨) H. Kamen, p. 13

H. Kamen, *War of succession*, pp. 25,83 – 84

J.H. Elliot, *op. cit.*, pp. 361 – 371

M. Defourneaux, *op. cit.*, p. 26

(٨٩) P. Coles, *op. cit.*, pp. 129 – 130

راجع أيضا حاشية رقم (٤٩) وخريطة رقم (١) .

وظل هذا الوضع مستمراً ومؤثراً في تاريخ إسبانيا حتى القرن الثامن عشر(٩٠) ، فيذكر كولز أن موظفاً إسبانياً كبيراً كتب عن بلده قائلا : «إنه جسم مكون من أجسام أخرى أصغر . أجسام منفصلة يعادي بعضها بعضاً ، ويناقض بعضها رغبات البعض الآخر . وفي حالة حرب دائمة فإن كل ولاية ، وكل مجموعة دينية ، وكل أصحاب مهنة ، ستكون منفصلة عن بقية الأمة ، متقوقعة على نفسها .. إن إسبانيا الحديثة ، يقصد في القرن الثامن عشر ، يمكن اعتبارها جسداً هامداً بلا طاقة .. إنها بمثابة كيان شاذ ضخم مكون من كيانات أصغر يواجه بعضها البعض الآخر نظراً لأن المصلحة الخاصة لكل منها في تناقض مع المصلحة العامة»(٩١) .

وإذا كان هذا هو وضع إسبانيا في القرن الثامن عشر ، فالذي لاشك فيه أنه نتيجة لأحداث قرون خلت(٩٢) .

المراجع

أولا : كتب باللغة العربية

حتاملة ، محمد عبده ، **محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة** ، عمان ، ١٩٧٧.

حتاملة ، محمد عبده ، **التنصير القسري لمسلمي الاندلس** ، عمان ، ١٩٨٠ .

حتاملة ، محمد عبده ، **التهجير القسري لمسلمي الأندلس** ، عمان ، ١٩٨٢ . .

عنان ، محمد عبد الله ، **نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين** ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

---

(٩٠) بل وظل التأثير بعد ذلك ، فضياع حقب طويلة من التاريخ الإسباني بلا جدوى والجهود المدمرة لمحاكم التفتيش وعدم دمج العناصر السكانية ، كل هذا ترك تأثيره حتى في إسبانيا المعاصرة ، ولكن تتبع ذلك في إسبانيا المعاصرة يخرج عن نطاق هذا البحث .

(٩١) P. Coles, *op. cit.*, p. 130

(٩٢) رغم أنني اقتصرت في هذا البحث على الجانب الاقتصادي ، ومايمسه مساً وثيقاً وحددت بداية القرن السادس عشر كبداية له ، إلا أننا لو راجعنا بعض المراجع السابقة على القرن السادس عشر ، والمعاصرة له ، لوجدنا مايؤكد خسارة إسبانيا لعددٍ كبيرٍ من العلماء العرب المسلمين ، كانوا غرة في جبين الدهر ، إذ هجروها إلى المشرق أو بلاد المغرب ، نتيجة الاضطهاد ، فهاهو المقري (ت ١٠٤١هـ) يقول : «اعلم .. أن حصر اهل الارتحال ، لايمكن بوجهٍ ولا بحال ، ولايعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال ، ولو أطلقنا عنان الأقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء الأعلام لطال الكتاب وكثر الكلام ..» .

انظر :

المقري ، أحمد بن محمد المقرى التلمساني : **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** . حققه إحسان عباس – بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨ . جـ ٢ . ص ٥

ولا بأس من مراجعة التراجم التى أوردها ذو الوزارتين ، لسان الدين بن الخطيب ، رغم أنه سابق على الفترة التى نؤرخ لها (في القرن الثامن للهجرة) لمعرفة ماكانت تزخر به هذه البلاد من علماء مسلمين . انظر : لسان الدين بن الخطيب : **الإحاطة في أخبار غرناطة** . حققه محمد عبد الله عنان – القاهرة ، ط ٢ ، مكتبة الخانجي ، ١٩٧٣ .

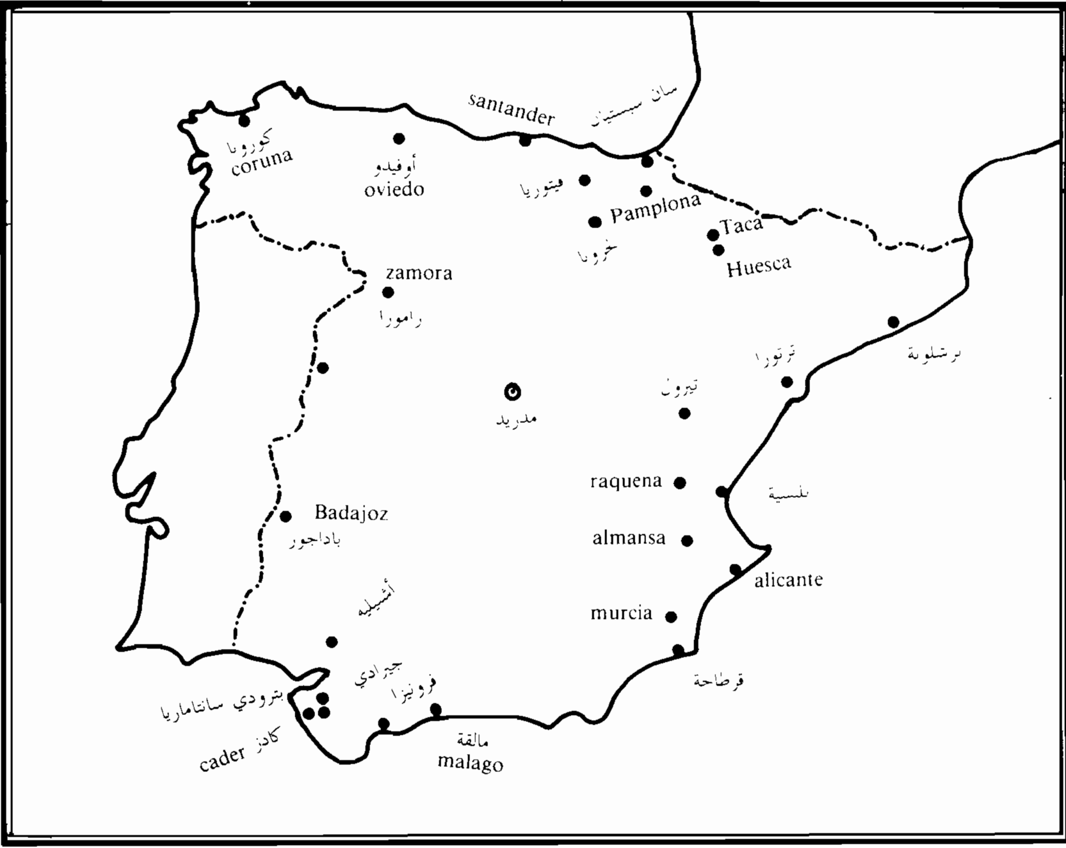
والحقيقة أن المراجع العربية التراثية ، كنفح الطيب ، والإحاطة وغيرها ، لم تركز على الجوانب الاقتصادية ، وإنما اهتمت كثيراً بالأدب ، والشعر على نحو خاص ، كما تعرضت للجوانب السياسية .

عنان ، محمد عبد الله ، **الآثار الأندلسية الباقية** ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦١ .
كاردياك ، لوي **الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون ، المجابهة الجبلية** ، ترجمة الدكتور عبد الجليل التميمي ، تونس ، منشورات المجلة التاريخية المغربية ، ١٩٨٣ .
المقري ، أحمد بن محمد المقري التلمساني ، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨ .

ثانيا : وثائق وكتب باللغات الأوربية

Archivo de Simancas, patronate Real, Inquisicion, Legajo unico, **Fol. 38,39**
Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 4, **Fol. 262**
Archivo de Simancas, Inquisicion, Libro 77, **Fol. 228.**
Brunel, Antonie, *A Journey into Spain,* London 1970
Coles, Paul, *The Ottoman Impact on Europe,* London 1968
Deforneaux, Marcelin, *Daily Life in Spain in The Golden Age,* Translated by Newton Branch 1979
Elliot, J.H. *Imperial Spain,* London 1963
Elliot, J.H., *The revolt of the Catalons, a study in the decline of Spain, 1595 – 1640,* Cambridge, 1963
Hamilton, E., *War and Peace in Spain 1651 – 1800,* Cambridge, 1947
Hamilton, E., *Decline of Spain.*
Kamen, Henry, *Spain in The later 17th Century, 1665 – 1700* London, Longman, 1980
Kamen, Henry, *War of Succession.*
Lea, Henry Charles, *The Moricos of Spain, the conversion and expulsion,* Philadelphia, Lea Brothers, 1901
Lomax, Derek W. *The reconquest of Spain.*
Lynch, J., *Spain,* Oxford, 1969.
Petrie, Charles, *A Short History of Spain,* London, Sidgwick and Jackson, 1975.
Phillips, Carla Rahn, *The Spanish Wool Trade, 1500 – 1780,* in the Journal of Economic History, IV, 1982.
Read, Jan, *The Moors in Spain and Portugal,* London, Faber, 1974

مراكز الجمارك الإسبانية في القرن ١٧.



المصدر : Kamen, Henry: Spain in the later seventeenth Century 1665 – 1700. p. 16.

The Muslim Impact on Spanish Economy During the 16*th* Century and the Beginning of the 17*th* Century

Abd Al-Rahman A. Ashaikh
Assistant Professor, History Department,
Faculty of Arts, King Saud University,
Riyadh, Saudi Arabia.

ABSTRACT

The Church, and not the Spanish people, expelled the Muslims from Spain. This fact is that Lea told us and some other European historians tell us the same. They studied many documents in European archives specially spanish. The documents tell us that the Spanish land lords did not agree with muslim expulsion. The published documents show us that many lands had no farmers, many factories had no workers, many villages had no inhabitants, and many works and business had no experts, after the Muslim expulsion. Some historians think that Moriscos expulsion was the main cause of the decline of the Spanish economy until the 18th century.